جزءٌ من النصر مفقود

ياسمين حسن

- لماذا تصرين على الرحيل؟
- لا أعلم.. لكنني لا أقدر على الصفح عنك.

هذه نهاية حديث بينهما، وبوجه شاحب تركته ورحلت وهي تبكي وتتذكر.. لا تعلم لماذا كانت تراقبه طوال فترة انتظارها للقطار وهو يتأمل العائدين والمغادرين، أيضا كان يلقي عليها نظرة من حين إلى آخر حتى وصل قطارها فقامت إليه، ثم لاحقها هو بملابسه الأنيقة وهيئته التي لا تدل إلا على رجل من طبقة متميزة.

جلس أمامها يلقي عليها التحية فابتسمت، وعلى الرغم من صمتها الهادئ فإنها كانت تصغي إلى كل كلمة يقولها؛ حيث اتسم بالثرثرة على عكس طبيعة الرجال.

كانت تنظر في عينيه لتجد نظرة عطش تنافي ابتسامة السعادة على وجهه.

في محطة الوصول أرادت أن تتركه، لكنه أبى ذلك، أصابها الريب من ترحابه العميق، على ما يبدو أنه محتال يريد الفوز بأي غنيمة منها، لكن كلها كتب وأدوية، هي لم تأتِ إلى هذه المدينة إلا لكي تهرب من شبح سكن جسدها، لم تستطع مواجهة الناس به، فمن ذا الذي يصدق أن طبيبة مختبر تصاب بنقص مناعة من خلال وخزة سيقت إليها عن طريق الخطأ؟!

استقلا سيارة إلى الفندق وهي ما زالت في دهشة منه، لكنها مطمئنة، أو

بالأحرى غير مبالية بما قد يفعله بها، دامت الصداقة بينهما في هذه المدينة التي لا يوجد بها عربي سواهما.

كل مرة كانا يلتقيان فيها كانا يشبعان بعضهما بالحياة، على الرغم من أن أحدهما لم يخبر الآخر بمن يكون، كلما أرادت إخباره بمرضها تراجعت، وهو الآخر لم يكن مهتما بمن تكون بقدر ما اهتم بسعادتها.. دائما في عينيه سر لا يفصح عنه، دائما يبسط تحت قدميها بساط الربيع جاعلا حر الشمس في ظهره.

كانت كل ليلة تحضر في عقلها آلاف الأعذار كي تصدرها في وجهه، لكن ما يثير دهشتها في كل ليلة أنه لم يسمح لنفسه باشتهائها، أثبت لها أنه الصديق الذي لا يجب أن تضيعه أبدا - ذلك ما اعتقدته هي - لكنه هو الآخر كان يقيم جدارا عازلا بين اشتياقه وبينها.. فما أصابه من حبها جعله يؤثرها على نفسه، لم يرد فقدانها لأنها في الحقيقة وطن أتى ليغترب معه.

ابتدأ عهده مع المراهقة على متن طائرة أتت به إلى هذه المدينة الثلجية.. سكن في أروقتها المزدحمة إلى أن ماتت مناعته، فلم يستطع العودة دونها إلى وطنه، لكنّ جزءا حيا من وطنه الآن بين يديه، لم يكن ليتركها تغيب عنه أو ترحل دون أن يرتشف منها رشفة حنين، لكنه يخشى نفورها منه لو أخبرها بما أصابه جرَّاء تهوره وانسياقه وراء شهواته الصبيانية.

ترى إلى متى سيظلان هكذا، كل منهما يواجه الآخر بقناع رخو ومشاعر مقيدة؟ سياط الذنب شرعت في جَلد قلبيهما. فبات كل منهما على فراشه يعاني الحيرة والخوف، أصبحا يجتهدان كل اجتهاد كي لا تسقط قطرة ألم من عين أحدهما في أثناء اللقاء، لا بد أن يسدل أحدهما الستار على مسرحية الزيف هذه.

في ليل ما، قرر هو أن يبعث فيها روحه من جديد، قرر أن يجعل من الموت حياة لهما. ذهب ليسألها الاقتران به، فاطمأن قلبها عندما أخبرها أنه قد تنازل لها عما تبقى من عمره، لكنّ عقلها يرتجف ولم تُجِب سوى

بالسكوت، سكوتها لم يكن كالمعتاد، رضا، إنما سكوت ألم وخوف.
وقفت تتأمل القدر الذي أتى به إلى طريقها عندما أُوصدت في وجهها أبواب الحياة، لم تستطع التنازل عنه للحياة فوافقت أن تهبه ما تبقى منها على أن تأخذ هي الأخرى منه ذاته.
أنانية الحب أو عشق الخلود أو ربما علاقة انتفاع كعلاقات كثيرة في الحياة كانت هذه العلاقة، لقد قرر كل منهما اغتصاب غايته من الآخر!
في مساء تلك الليلة وقفت أمام المرآة تتأمل وجهها الشاحب وخصلات شعرها الباهتة، حاولت إخفاء ذبول وجهها بابتسامتها الجائعة، وعلى خصرها النحيل أسدلت رداءً شديد النعومة جعلها تبدو كعروس بحر بلونه المائي، ثم في عجل رتبت فراشها وأخفت زجاجات الدواء، ثم خفضت الإضاءة وفتحت النافذة ليطل القمر على هذه الأمسية الكلاسيكية، ثم جلست تنظر بسخرية لكأسين فارغتين وزجاجة من عصير العنب الخالي من الكحول، هل تسعد لأنها الليلة عروس للمرة الأولى أم تحزن لأنها الليلة قاتلة من الدرجة الأولى؟!
وهو في سيارة ارتفع صوت مسجلها بموسيقى كلاسيكية غربية تشبه بدلته السوداء ورابطة عنقه الأنيقة، كل شيء في هذه الليلة ينم عن ميلاد حياة إلا في نفسيهما، كان كل شيء يحكي عن وقوع جريمة من نوع فريد، جريمة حب مع سبق الإصرار والترصد.
دقت العاشرة مساء تعلن وصوله إلى غرفتها، فتحت الباب بهدوء واستقبلته بجوار الطاولة لتجعل زجاجة النبيذ تستمع إلى همسهما بينما تضحك الكأسان الفارغتان على هذه الأمسية. أطراف الحديث تأبى إلا أن يرتكب كل منهما جريمته، بتردد أخذ كل منهما خطوته نحو الفراش الذي ينتظر احتضارهما عليه..
لم تستطع إخفاء دموعها فور انتهائهما من عشقهما الانتحاري، بينما انكمش هو بين ذراعيها كطفل خائف، ثم همس قاطعا بحر الصمت الذي خاضاه

لساعة أو بعض ساعة: «تُرى ما الذي سيجعلك تتركينني؟!».
- بعد هذه الليلة، لن يستطيع كل منا ترك الآخر إلا بموته.
ثم تنهدت وأطبقت عليه بذراعيها ليلتف هو الآخر حولها بذراعيه، إلى أن مر الليل وكأنه فصل مكتمل.
في الصباح، استيقظا من غفوتهما الزائفة وفي قلب كل منهما غصة فرح دامعة. تبسم في وجهها بنظرة شك، ثم لثم جبينها المتعرق، ثم اعتدل وهو يتأملها اعتقادا منه أن اصفرار وجهها وتعرقه هما من أثر العدوى التي أصابتها، مرت دقيقة ثم انتفضت هي لرؤيته بقربها، ثم هدأت من روعها وهي على صدره تضمه كما لو كان جوهرة ثمينة قد ظفرت بها بعد واقعة سطو مسلحة بحبها له.
الصباح في المدينة خريفي، وهما بيدين متشابكتين وخطوات متطابقة يجوبان المدينة، كل منهما مسافر إلى الآخر هربا منه، على طرفي الطاولة الذابلة جلسا يرسل كل منهما برقية اعتراف، قالت في برقيتها: «أعترف أنني قتلتك أمس بي».. شخصت عيناها وابتسمت بخوف عندما فتحت برقيته لتجد النص ذاته!!
في طريق العودة اصطحبها في جولة إلى ماضيه المليء بالمغامرات المقززة، وكيف قرر أن ينهي حياته برفقتها وأن يأخذها معه لأنها الوطن الذي اشتاق إليه كثيرا لكنه لا يستطيع العودة إليه.. انهالت عليها اعترافاته كحمم بركانية، واكتشفت أنها كما خططت لامتلاك ما تبقى منه خطط هو للشيء ذاته.
غيرة الأنثى المتبقية داخلها جعلتها تنشق عنه متناسية أمر مرضها، ثم أخبرته بأنها سترحل عنه.. التفت بدهشة يسألها: «لماذا تصرين على الرحيل؟».
أجابت وهي تخفي اختناق صوتها بالبكاء: «لا أعلم.. لكنني لا أقدر على الصفح عنك».
أيقظها صوت السائق ودمعتها الباردة تسقط على حقيبتها، فالتفتت حولها

لتجد الثلج مسترسلا في أنحاء المدينة، فطلبت منه، بابتسامة رضا، أن يعود بها إلى حيث كانت، لتجده قابعا في غرفتها على أمل أن تعود ليرجوها البقاء معه. فابتسمت وجلست بجواره محتضنة رأسه بذراعيها، قائلة: «أيها الشقي، تحسب أن لي في الأرض ملجأ سوى قلبك بعد اليوم؟». ثم استرسلت تقص عليه كيف هاجمها هذا المرض الموحش في المختبر الذي يضج بمختلف العينات المريضة، ثم أنهت حديثها بابتسامة هادئة.

obeikan.com